

- ٤٩ -

جوهر الشعر هو التصوير ، فإن المعاني مادة الشعر ، والشعر فيها كالصورة . فلا ينبغي الحكم على الشعر بمادته ، أى معناه . وإنما يحكم عليه بصورته ، كما لا يعيب التجار فى صنعه رداءة الخشب فى ذاته . فليس الشعر سوى صياغة جميلة ، لا يطالب الشاعر بسواها . فلو أن الشاعر أكبر من شأن حقير ، أو حقير من شأن عظيم فى تصوير جميل ، لما نال ذلك منه ، بل لعد مقياس براعته .

ويستشهد قدامة بما روى عن الأصمعى أنه سئل : من أشعر الناس ؟ فقال : « من يأتى إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً ، أو إلى الكبير ، فيجعله بلفظه خسياً (١) .

ولو أرجع قدامة الأمر فى ذلك إلى إيمان الشاعر بما يقول ، لقلنا إنه يعتمد بأصالة الشاعر ورجوعه إلى ذات نفسه وحرية فيما لو خالف الناس فعظم ما يصغرون أو صغر ما يعظمون . ولكن قدامة لم يعتد بشئ من ذلك . فلا ضير - عنده - أن يكذب الشاعر نفسه ، فيصور غير ما يعتقد . ولا يعد تناقض الشاعر مع نفسه منقصة . ولذا ينبغي ألا ينكر على الشاعر - عند قدامة - أن يصف شيئاً وصفاً حسناً ، ثم يلهمه بعد ذلك ذماً بيناً ، بل يدل ذلك عنده على اقتدار الشاعر وقوته فى صناعته (٢) ، إذ الأمر لا يعدو التصوير الحسن دون صلة ما بالصدق أو الأصالة .

ثم يسند إلى بعض القدماء - قدماء اليونان - القول بأن « أحسن الشعر أكذب » (٣) ، وقد يسند بعض نقاد العرب هذا القول إلى أرسطو (٤) ، وهو ما لا أساس له من الصحة .

ولسنا فى حاجة إلى شرح خطأ قدامة فيما يلهم إليه . فإن من يعتد بهم

(١) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، ص ١٠١ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٥ - ١٦ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣٧ .

(٤) نقد الشعر المنسوب إلى قدامة : ص ٩٠ .